على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الرابع

مجلس شورى (تابع)

وما هي ان ظهرت حتى ترجلوا هاتفين . فترجل الامير مجيباً عن هتافهم بكل ما في صوته من نبرات الاخلاص والوفاء . ثم تقدّم فعانق الشيخ بو غانم وسلّم على الباقين كلًّا بمفرده ، وركب معهم فساروا فرحين الى سراي دير القمر

في الطابق الاسفل من السراي القديمة التي بناها الامير ملحم شهاب ردهة فسيحة ، يغطيها سقف عالٍ من العقد المصالب يرتكز ، في الزوايا ، على اربع عضائد ، وفي الوسط ، على عمود واحد ضخم مصقول منقوش الدائر ، يلفت انظار الداخلين بضخامته ومتانته ، وقوته على حمل ذاك البناء العظيم ، حتى ان الناس اجمعوا على تسمية تلك الردهة « بقاعة العمود » — اما « قاعة العمود » في قصر بيت الدين فقد سُميت تشبيهاً بهذه — وكان في الردهة شبابيك مزدوجة معروفة « بالقندلونات » ترتكز على شمعات لطيفة دقيقة من المرمر الخالص وتطلّ من الجهة الجنوبية ، على « حيارة » الدير ؛ فتفسح مجالًا للنظر يرتاح فيه الى مشهد شائق من الاشجار والنباتات المختلفة . وتحت الشبابيك من الداخل ديوان واطئ من الحجر يدور في الردهة ، كان قد فُرش تلك الليلة بطيالس نفيسة من الاطلس الاحمر ، علته الطناقس الوثيرة يلمع مخملها الاسود تحت وقع انوار الشموع والقناديل العديدة التي انيرت لاستقبال الامير

وما ان علت الجلبة في السوق ، حتى هرول من كان في « قاعة العمود »

من الامراء والمشايخ الى استقبال القادم . فهتفوا له ودخلوا به الى المجلس . فاعتلى طنفسة مزركشة بالذهب احاط بها شمعدانان ، وجلس اعوانه بين يديه بصمت وسكون ، ووقف الخدم مسلحين امام الباب وقوف الليوث امام العرين

تلك كانت هيئة « مجلس الشورى » الذي قصد الامير بشير عقده قبل الجواب عن مطالب الجزّار . شاء ان يأخذ آراء اهل دير القمر ، وهم نواة حزبه وانصاره ، وكلهم ممن يعتمد عليهم في تقلبات الامور من اصحاب الآراء الصائبة ، وحملة السيوف البائرة ، وقادة الفرسان المَهَرة ، وارباب الثروات الوافرة .

كان الامير يعرف ذلك فلا يبتّ في امر قبل ان يستشيرهم ؛ وقد كان اوفر حكمةً من اخصامه ، اذ لم يكن يكتفي بطلب آراء الامراء والمشايخ فحسب ، بل يلجأ الى استشارة الشعب ايضاً فيجمع في مجلسه شيوخ العيال من « العامية » . وهو ما اراده تلك الليلة فأمر ، قبل ان يُبدأ بالبحث ، ان تُدعى شيوخ دير القمر مع رئيس انطوش سيدة التلة

وكان اول من اقبل رئيس الانطوش لقرب الكنيسة من «قاعة العمود» . فاستقبل بالاكرام واتخذ محله بين المشايخ . ثم اقبل وفد من شيوخ العيال ، فانحنوا رؤوسهم عند الباب ووقفوا مسلمين . فردّ الامير عليهم السلام ، وقال :

— تفضّلوا !

فتقدموا الى المقاعد وظلّوا واقفين . فالتفت اليهم الامير ثانية وقال :

— تفضلوا ! اقعدوا !

فقعدوا على جنب واحد جالسين على الركبة اليمنى ومستندين الى الاخرى . حتى اقبل عليهم الامير ثالثة وقال :

— تفضلوا ! خذوا راحتكم !

عند ذلك استقرّوا في مجالسهم مطمئنين . وتلطّف الامير فأمر بالقهوة للجميع . وبعدها بدأ مجال البحث في اسباب عقد ذاك المجلس ، فقال الامير :

— سمعتم جميعكم ، دون شك ، بالحوادث الاخيرة التي تظهر كلها موافقة لحزبنا . وان من ترقّب مجرى السياسة في هذه الايام ، وعرف

قيمة المراكز التي اخذناها ، والطرق التي ترابط فيها جنودنا ، لا يمكنه الّا الاقرار بظفرنا والتفاؤل بنجاحنا القريب . فقد ارسل اليّ الجزار خلعة الولاية بعد ان اتّفق الجميع على رجوعي الى الحكم ،والتمسوها لي بامضاءاتهم التي لا يمكنهم «لحسها» . وقد شعر الاعداء بضعفهم عن المقاومة فهربوا الى الشمال كما تعلمون ، بعد ان دخل هذا البطل — واشار الى الشيخ بشير جانبلاط الذي كان عن يمينه — مع اخي حسن ، والمتلا اسماعيل ، بلاد الشوف .وهذا امر مشهور يعلمه كلكم . وتعلمون ايضاً اني ما كدت اصل بالعسكر الى كفرحتل حتى اقبل اليّ الامراء اللمعيون ، والعمادية ، وسائر الاعيان مسلمين . فامنتهم ، وكان لم يبقَ الّا النكدية ، وعبدالله القاضي ، وبعض التلاحقة . ولكن هؤلاء ايضاً لم يلبثوا ان استسلموا طالبين الامان بعد ان رأوا العمادية تُخرب ، وقرى الغرب الاعلى تُنهب ، والكنوز والمخبآت تُكشف من الاديرة والقصور ، والنكدية تُغرَّم بخمسين الف غرش ، والعسكر يتقدّم يوماً فيوماً ؛ حتى دان لنا الجنوب والشوف والمتن . وقد قدم اليّ مؤخرًا الامير قعدان ، والامير حيدر ملحم يطلبان الصفح ، فعفوت لهما ، وطيّبت قلبيهما ، واطلقت لهما التصرّف بارزاقهما ، فرجعا : الاول الى رأس المتن ، والثاني الى بشامون ، وهما من اخلص الاصدقاء ، واصدق المعاونين

ثم استراح قليلًا كي يرى وقع كلامه ، فرأى رؤوساً متطاولة ، وعيوناً شاخصة ، وانفاساً مضبوطة ، ووجوهاً طافحة . فشعر بان حبه لا يزال متمكناً بالقلوب ، وان كلامه يصادف احسن وقع ، فتابع :

— غير ان تلك الانتصارات لا تقوم الا بالتضحيات الوافرة : تضحيات المال وهي لا يؤبه لها في سبيل الظفر وحفظ الشرف . وتضحيات الرجال ، واحسرتاه !

وهنا اغبرّت سيماؤه ، وانقبضت ملامحه :

— واحسرتاه على الشيخ قاسم ! واحسرتاه على منصور ! واحسرتاه على فارس ! واحسرتاه على حسين ! واحسرتاه على حماد !

وجعل الامير يسرد اسماء شجعانه المفقودين بتأثر ظاهر وصوت متهدّج ،

ونبرة ضعيفة، حتى تصوّر الجميع انهم يسمعون صدى نشيجه في افئدتهم. فتوطنت آماقهم، وظهرت امامهم اشباح اولئك الفرسان الذين قضوا شهداء واجبهم، وفداء اميرهم المحبوب

— ولكن من مات في سبيل الواجب والشرف فإنه لم يمت؛ بل ذكره حيّ خالد بحياة الواجب، وخلود الشرف.

قال الامير هذا مستجمعاً ما في صدره من القوى الكامنة، وما في ارادته من الصبر على المحن:

— واذا اراد هذا الواجب، واذا شاء هذا الشرف، ضحايا جديدة فاننا جميعاً مستعدّون لبذل نفوسنا. فالموت بالعزّ ولا الحياة بالذلّ. او ما سمعتم قول شاعر الفرسان، وفارس الشعراء:

لا تسقني كأس الحياة بذلّةٍ بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلِ
كأس الحياة بذلّةٍ كجهنّمٍ وجهنّمٌ بالعزّ أطيبُ منزلِ

وكان الامير يضرب على اوتار حسّاسة في قلوب ارقّ ما فيها عاطفة الشرف والاخلاص. فتلاعب بها ما شاءت بلاغته، محوّلاً وجوه سامعيه، في اقلّ من خمس دقائق، من مظاهر الاعجاب الشديد، الى الحزن العميق، الى الحماسة والتهوّس. فجعلوا يتململون كما في صهوات خيولهم، كأنهم ينتظرون ساعة الطراد، متشوّقين الى سماع صليل السيوف، وتناشق رائحة البارود

ولكنّ الخطيب اراد المحافظة على تلك الحميّة، وخزنها لساعة اللزوم، فغيّر لهجته من الحماسة الى الاطمئنان، وتابع:

— امّا الآن، والحمد لله، فلا نرى من حاجة الى بذل النفوس، اذ ان الحالة لا تتطلب حروباً بعد. بل جلّ ما نبذله اكياس المال، وهو ايسر ما يُبذل في سبيل الواجب والشرف. وانتم اعلم من ان اخبركم بتطامع الجزّار وشدّة شرهه للاصفر الرنّان. فقد ارسل يطلب مني مؤخّراً مبلغ ثلاثمائة الف غرش مع رهينتين يحتفظ بهما بدلاً من ذاك الشيخ الجليل، الشيخ قاسم، الذي عرفتم جميعكم مبلغ وطنيته وشهامته ... ولا تحاروا في كيفية الحصول على المبلغ، وفي اختيار الرهينتين. فقد دبّر الله كلّ شيء. وما جمعتكم الّا

لاستشيركم في ما قصدنا عمله. فقد رأينا ان نُرسل غدًا الفتى غانم ، حفيد كبيرنا الشيخ بو غانم ، وهو جلّ ما يطمح اليه الجزّار . مع مبلغ مائة وخمسين الف غرش . على ان يذهب اليه بعد رجوعه من الحجّ ، رفيقي ومعاوني ، الشيخ بشير ، حاملًا المبلغ الباقي . فما قولكم ؟

وما اتمّ الامير خطابه الطويل حتى افاق السامعون كمن سبات عميق ، مضطربي العواطف ، مروّعين امام تلك الحواجز التي تعترض اميرهم في سبيل الحكم ، معجبين بطريقته في حلّ الصعوبات وتمهيد العقبات بتلك السهولة والرزانة . حتى انهم حاروا فيما يجيبونه ولم يبقَ مجال للمداولة ولا سبيل للشورى

وكأنّ الامير شعر بحيرتهم هذه فقال :

— لا تهتموا بالقيمة الباهظة فقد حصل لدينا منها حتى الآن مائة وخمسون الف غرش . وقد ارسلت اجمع الهميد من البلاد ولا يمضي الشهر حتى نحصل على الباقي . اوَ ليس كذلك يا معلم نقولا ؟

فوقف هذا واجاب :

— نعم يا مولاي !

عند ذلك وقف الشيخ بو غانم وقال :

— ان حكمتكم السامية في حلّ العقد المحكمة ، وتمهيد العقبات الكؤود ، وتذليل الصعوبات الشديدة ، لم تدع مجالًا للبحث والتفكير . فما رأيتموه هو الرأي الصائب ، وما اشرتم به هو المشورة المثلى . وان غانمًا لطوع امركم حيث ارسلتموه ، وهو لا يلتمس سوى تقبيل يديكم

فأمّن الجميع على كلامه . بينما كان احد الخدم ينادي غانمًا من الدار الخارجية . فاقبل هذا وودّع الامير والحاضرين

وبعد ان امر بدور ثانٍ من القهوة ، انفضّ المجلس ، والجميع معجبون بهذا الامير الجليل ، وبهيبته التي تجعل ان «يميل اليه الناس ، وتلوح منه اللطافة والايناس»

(لها بقية)